أنيوشا

لانطون تشيكوف

في حجرة هبط إيجارها إلى الحدّ الأدنى في بناء أعدّ لإيجار غرفة مؤثثة ، كان ستيان كولتفكوف ، وهو طالب طب في السنة الثالثة يذرع أرض الحجرة رواحاً وجيئة ليستذكر دروسه في علم التشريح في حماس . وقد جفّ فمه وتندّى جبينه بالعرق لجهده المتواصل في استظهار الدروس .

وعند نافذة غشاها الجليد ، جلست أنيوشا ، الفتاة التي تعايشه ، على مقعد ، نحيلة الجسم ضامرة ، وقد بلغت الحادية والعشرين من عمرها ، شاحبة فاض دم وجهها ، ولها عينان وسنانتان دعجاوان ، جلست منحنية على قصص رسل «مشغولة بتطريز بليقته بخيوط حمر . . . تجالد الحياة ... أعلنت الساعة التي في الممر الثانية ، في تراخ ، ولما تعد الحجرة الصغيرة أو يصلح من شأنها منذ الصباح . فلابس النوم ملقاة في غير نظام والوسائد والكتب والثياب مبعثرة هنا وهناك ، والدلو المعد للقاذورات قد امتلأ بماء الصابون فيه تسبح أعقاب لفائف التبغ ، والمجرفة ملقاة على أرض الحجرة — كل هذه الأشياء بدت كأنها قد اختلط بعضها بالبعض الآخر قصداً في اضطراب واحد ...

تتركب الرئة اليمنى من ثلاثة أجزاء — « رند كولتفكوف » — حدودها الجزء العلوي على الجدار الأمامي للقفص الصدري ويمتد حتى يصل الضلع الرابع أو الخامس على السطح الخلفي ، والضلع الرابع ... يمتد الى خلف حتى النطاع الشوكي .

فحص كولتفكوف بصره الى سقف الحجرة وهو يحاول أن يتمثل أمام ناظريه ما قد فرغ من قراءته . ولما لم يعد قادراً على تكوين صورة واضحة له بدأ يتحسس أضلعه العليا من خلال صدريه وقال :

إن هذه الأضلع تشبه مفاتيح المزمار (البيانو) يجب أن يتعرفها الإنسان جيداً بأية

حال من الأحوال وإنما الخلط عليه أمرها يجب على الطالب استذكارها على الهيكل العظمي والجسم الحي ... إني أريد أن أنيوشا ذهبي أميزها الواحدة عن الأخرى ، فأرست أنيوشا ما تخيطه وخلعت عنها البلوزة وقومت مرشأن جسمها ، وجاس كولتشكوف إليها وجهاً لوجه مقتطب الجبين وبدأ بعد أصلعها .

هم ! ... ليس من المستطاع أن تتحسس الضلع الأول فهو يقع خلف لوح الكتف .. وهذا يجب أن يكون الضلع الثاني ... نعم ... وهذا هو الثالث ... وهذا هو الرابع .

هم ! ... نعم ... لماذا ترتعدين ؟ ...

إن أصابعك باردة .

هيا هيا ... فلن تقتلك أصابعي . لا تركي جسمك . وهذا لابد أن يكون الضلع الثالث . وحينئذٍ ... يكون هذا الرابع ... إن جسمك يبدو كثير العظام ومع هذا فإن من الصعب العثور على أضلاعك . ذلك الضلع الثاني .. وذلك الثالث ... أوه إن هذا يدعو الى الارتباك ولا يمكنني أن أتبينه جليًّا ... يجب أن أحدده فأين القلم الرصاص ؟

أولاً ذلك يمتد في خط مستقيم لا ينحني ولا يلتوي ... حسناً الآن يمكنني أن أجسمك في ! فرفعت أنيوشا ورفعت ذقنها الى أعلا وبدأ كولتشكوف يفحصها . ولقد كان منهمكاً في عمله الى حدٍّ لم يلحظ فيه كيف أصبحت هفتا أنيوشا وأصابعها زرقاً من البرد . ارتعشت أنيوشا وخشيت أن يلحظ الطالب هذا فيترك التحديد بالقلم الرصاص على صدرها وخص جسمها . وحينئذٍ تكون لطالبة فشله في الامتحان .

لقد أصبح كل شيء الآن واضحاً هكذا قال كولتشكوف عندما أنجز مهمته . ثم قال اجلسي على هذه الحال ولا تزيلي أثر القلم الرصاص فإني في أثناء ذلك أستوعب أكثر مما أستذكر ، بدأ الطالب ثانية يذرع أرض الحجرة روحةً وجيئةً ، وهو يكرر ما وعى في نفسه وقد بدت الخطوط السود على صدر أنيوشا وكأنها الوشم وقد جلست مفكرة مهدلة الأوصال ترتعش من البرد وكان من عادتها ألا تسرف في الحديث ، فهي دائماً صموت مستغرقة في تفكيرها .

وفي السنوات الست أو السبع التي قضتها متنقلة من غرفة مفروشة الى أخرى ، عرفت

خمسة طلاب من طراز كولتشكوف « والآن وقد أتموا دراستهم جميعاً فقد انطلقوا في رحاب الحياة ، يسعون في مناكبها . وهم كغيرهم ممن هم جديرون بالاحترام ، فقدناهم منذ زمن طويل .

كان أحدهم يقيم في باريس واثنان امتهنا الطب وغدا الرابع فناناً. أما الخامس فقد تراءت الأقوال على أنه أصبح أستاذاً في الجامعة ... وكان كولتشكوف سادسهم ... وسرعان ما يتم هو الآخر دراسته ويضرب في هضاب الأرض . كان مستقبلاً جميلاً ينتظره لا مراء ، وقد يغدو كولتشكوف رجلاً بارزاً . ولكن حاضره لم يكن براقاً . لم يكن لدى كولتشكوف نبعاً ولا هايا ولم يبق له سوى أربع قطع من السكر ويجب على أنيوطا أن تسرع وتنجز التطريز الذي بيدها وتحمله الى المرأة التي قد أوصت بعمله وتشتري هايا وتبعاً بربع الروبل الذي ستتقاضاه أجراً عليه.

سأل سائل بالباب هل يمكنني الدخول ؟

ألقت أنيوطا في سرعة شالاً صوفياً على كتفيها ودخل فستوف الفنان المحترة وبدأ حديثه مخاطباً كولتشكوف : لقد جئتك لتسدي إليّ صنيعاً ، قال كوهن ضار وهو يحملق من تحت غدائر شعره الطويلة المتهدلة على حاجبيه . إصنع جميلاً وأعرني فتاتك لبضع ساعات ! إني أرسم صورة وكما ترى لا يمكنني الاستمرار فيها دون أنموذج .

نزل كولتشكوف عند إرادته وقال : أوه . بكل سرور . انطلق معه يا أنيوطا . فهمت انيوطا في هدوء ورقة ! ما الأشياء التي ينبغي أن أقوم بها هناك ؟ هراء ! إن الرجل يرجوك خدمة الفن وليس من أجل أمر تافه آخر فلماذا لا تعدين له يد المساعدة ؟ ما دام ذلك في استطاعتك ؟

بدأت أنيوطا ترتدي ملابسها .

سأل كولتشكوف « وماذا ترسم ؟ »

إن سبكي « موضوع جميل ولكن لا يمكن الاستمرار فيه بحال إذ يجب عليّ أن أرسم من نماذج مختلفة ، فبالأمس كنت أرسم فتاة ساقاها زرقاوان فسألتها لماذا ساقاك زرقاوان ؟ فأجابت « إن جواربي قد صبغت ساقي باللون الأزرق ولا زلت أنت يا كولتشكوف

كيف تكدح . فيالك من فتى حسن الحظ أوتيت الصبر والمثابرة !! »

إن الطب عمل لا يمكن الإنسان الاستمرار فيه دون هذا الكدح .

ثم .... اصفح عني يا كولنكوف إذا قلت لك إنك تعيش كالخنزير وتحيا حياة كريهة ماذا تعني ؟ لا مهرب لي من هذه الحال — .... فإني أحصل على اثني عشر روبيل من أبي في الشهر ومن العسير أن يعيش الإنسان عيشة محترمة بمثل هذا المبلغ .

فقال الفنان « نعم ... نعم » وهو يقطب حاجبيه متمعناً مهتزئاً ، « ولكن مع هذا يجب عليك أن تحيا حياة أحسن . فإن الرجل المثقف يجب أن يكون ذواقة . أليس من الواجب أن يكون كذلك ؟ والسماوات تعرف ماذا تعنيه الحال هنا ! فالفراش الزري والماء القذر والاوساخ .... وعصيدة الأمس لا زالت في الأطباق ... اتذو .

قال الطالب في اضطراب ... « هذا حق ولكن لم يكن لدى أنيرها الوقت الكافي لترتيب شئون الحجرة . فقد كانت مشغولة طوال الوقت .

ولما غادرت أنيرها والفنان الحجرة إرتمى كولنكوف على الأريكة وأخذ يستذكر دروسه وهو مستلق في الفراش وفجأة استغرق في نوم عميق . فلما استيقظ من نومه بعد ساعة أسند رأسه براحتيه وغرق في تفكير مظلم عميق ، وتذكر كلام الفنان بأن الرجل المثقف يجب أن يكون ذواقة ، وقد صدمته البيئة التي يعيش فيها . وأحس أنها كريهة تمافها النفس وتدعو للتمرد والعصيان ، ورأى وكأنه يبصر مستقبله بعقله لا بعينيه عندما يقابل مرضاه في غرفة « الكشف » ويتناول الشاي برفقة زوجه وهي سيدة محترمة في غرفة الطعام الرحبة . أما الآن فالدور المعد للقاذورات حيث تسبح أعقاب الفائف التبغ ، وتبدو كريهة لحد لا يتصوره العقل ومرت أنيرها أيضاً بخياله وهي فتاة بسيطة دمثة تستدعي حالة الشفقة .. فعقد العزم على ان يفترق عنها حالاً مهما كلفه هذا من مشقة وثمن .

فلما عادت من منزل الفنان وخلعت معطفها استقام واقفاً وقال لها في لهجة الجد .

أعيريني سمعك يا فتاتي الطيبة ، اجلسي واصغي ، يجب أن نفترق ! فإن الحقيقة أني زهدت في الحياة معك .

كانت أنيرها قد عادت من عند الفنان محملة منهوكة القوى فإن وتوثبها وذكاءها وفتنا

طويلاً جعل وجهها يبدو رقيقاً بارز العظام غائر العينين ، وأن ذقنها قد دقت واستدقت فلم تجب على كلمة مما فاه به الطالب ولكن بدأت شفتاها ترتعشان .

وقال الطالب أنت تعرفين أننا سوف نفترق إن عاجلاً أو آجلاً بأية حال من الأحوال أنت فتاة فريدة المعشر طيبة القلب ولست حمقاء وسوف تتفهمين ما أقول .

إرتدت أنيوها معطفها ثانيـة في صمت ولفت شعل الابرة في الورق وجمعت في حزمة الابر والخيوط ووجدت قصاصة الورق وبها قطع السكر الاربع في النافذة فوضعتها على التضد بجوار الكتب .

وقالت في رقة « أفكرك ، هـذا هو .... وأدارت وجهها لتخفي دموعاً ترقرقت في ماقيها .

فسألها كولنفكوف : لماذا تبكين ؟

ثم تجول في الحجرة في اضطراب وحيرة وقال :

أنك فتاة غريبة الأطوار حقاً .... لماذا هـذا وأنت تعرفين أننا لا بدّ وأن نفترق فلا يمكن أن نبقى معاً إلى الأبد .

جمعت كل ما تعلق بها واستدارت لتودع كولنفكوف فأحسّ بالأسف والأسى لفراقها .

وتفكر الأمر مسائلاً نفسه « هل أدعها تبقى أسبوعاً آخر ؟ فلا غضاضة عليّ من بقائها وسوف آمرها بالرحيل في غضون أسبوع » فتضايق من ضعفه فصاح بها في خشونة وجفاء .

عودي لماذا تقفين هنالك ؟ إذا كنت مزمعة الرحيل فهيا وإذا كنت راغبة عنه فاخلعي عنك معطفك وأمكثي ! إذ يمكنك المكث !

لفت أنيوها عنها معطفها خلسة وفي صمت ثم تخطت خفيـة أيضاً وتنهدت وعادت دون حركة إلى مكانها الذي لا يتغير على مقعدها بجوار النافذة .

جذب الطالب إليه الكتاب المقرر وبدأ يقطع أرض الحجرة ثانيـة من ركن إلى ركن وردد قائلاً : تتركب الرئة اليمنى من ثلاثة أجزاء — الجزء العلوي على الجـدار الأمامي للقفص الصدري ، ويصل حتى الضلع الرابع أو الخامس ....

وفي المر صاح شخص بأعلى صوته : احمد الصـور ياجريجوري !

سليم الاسيوطي